البابُ الأوّلُ

سَيفُ الدّولة في مَيدَان الحَيَاة

الفصل الأول : حياة سيف الدولة

الفصل الثاني : تشجيع سيف الدولة للأدباء والشعراء

الفصل الثالث : أدب سيف الدولة

obeikandl.com

obeikandl.com

- ١ -

حياة سيف الدولة

نشأة سيف الدولة :

كان سيف الدولة واسطة قلادة بني حمدان كما كان غرة الزمان وعماد الإسلام ومن به سداد الثغور وسداد الأمور وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسها وتفل أنيابها وتذل صعابها ، وكانت غزواته تدرك من طاغية الروم الثأر وتحسن في الإسلام الآثار وكان مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرحال [١] .

وقد ولد الأمير علي بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن حمدون بن الحارث ابن لقمان بن أسد بن راشد في ميافارقين[٢] سنة ثلاث وثلاثمائة ، وقيل سنة واحدة وثلثمائة . وكان أبوه أبو الهيجاء رجلاً عرف بالشجاعة وولي عدة ولايات يخوض الحروب ويشارك في عزل الخلفاء وكان أعمامه ممن

---

(١) يتيمة الدهر (١١/١) .

(٢) ميافارقين ؟ ـ مدينة جليلة عظيمة الخطر عليها سور من حجارة وفصيل وخندق عميق مصطكة العمارة ضيقة الاسوار وبها مسجد جامع والاشجار والانهار محتفة بها، صورة الارض بن حوقل ص(٢٠٢).

عرفوا بأساً وقوة وشجاعة كالحسين وداود وسليمان الحرون وأبي العلاء سعيد.

وينشأ الأمير الحمداني وأنظاره تتفتح على مجد أسرته ويسمع ببطولات فرسانها ويهفو قلبه لخوض المعامع وتسجيل المفاخر .

ولم يكد الأمير الحمداني يتم العقد الأول من حياته حتى أسلمه أبوه إلى العلماء والحكماء يدربونه ويلقنونه الحكمة وصنوف العلم وقد كان ذكاؤه الحاد خير مشجع له على أن يزدرد من حكمة وعلوم العصر بأن يأخذ من كل شيء بطرف وأن يهز قلبه الأدب والشعر أكثر من كل شيء .. وأن يكون لهوه في القنص وركوب الخيل والرمي وأن تخفق قلوب الفاتنات بحبه ، وأن تكون أقاصيص الغزوات والحروب هي أشهى ما يستهوي فؤاده[1] .

وكان من أساتذة سيف الدولة ابن خالويه الذي يعد مؤدب أمراء بني حمدان وكان من أساتذته أبو ذَرّ الذي ذكره الثعالبي ونعته بأنه أستاذ سيف الدولة وذكر له شعراً رقيقاً منه قوله[2] .

نفسي الفداء لمن عصيت عواذلي في حبه لم أخش من رقبائه
الشمس تطلع في أسِرَّةِ وجهه والبدر يطلعُ من خلال قَبائه

ويرى الدكتور طه حسين أن ثقافة سيف الدولة ثقافة واسعة عميقة فقد كان على احتفاظه بكثير من خصال البداوة — أبعد الناس عن حياة البدوي الجاهل الذي لا يعرف إلاّ الشجاعة والبأس والكرم والجود .

وكانت بيئته الخاصة التي نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت

---

(١) سيف الدولة — سامي الكيالي ص (٢٩) .
(٢) اليتيمة (١ / ٨٥) .

مسيطرة في بغداد . وأخذت أسرته بأسباب الترف وعاشت عيشة المتسلطين ولم تترك أبناءها بغير تربية ولا تثقيف وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين وعلمتهم ما لم يكن بد من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال [١] .

ويظن أحمد أمين أن سيف الدولة كان يعرف غير العربية مستدلاً بما ذكره ابن خلكان في ترجمة الفارابي من أنه كان لسيف الدولة مماليك وكان له معهم لسان خاص يحدثهم به [٢] . ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون سيف الدولة ملماً شيئاً ما باليونانية وثقافتها معللاً ذلك باتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشؤونها [٣] .

وينشأ الأمير الفتى وسط الزعازع العصيبة التي كانت تعصف بالدولة العباسية فيقدم ولا يحجم ويدرع للأهوال بنفس واثقة وفؤاد جياش وعزيمة قوية . وما يكاد الأمير الشاب يبلغ منتصف العقد الثاني من عمره حتى يفجع بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر له فيزداد حنقاً وثورة ووثوقاً وإيماناً بالله . وقد طبع هذا التاريخ الدامي لأسرته نفسه منذ نشأتها بطابع البطولة والشجاعة التي أظلت فيما بعد شعراء الندوة السيفية في حلب بظلال الفروسية والقوة .

وقد تحدث كثير من المستشرقين عن سيف الدولة فرأى بعضهم فيه البطل والقائد وسليل الأسرة الحرة من الحمدانيين الذين حكموا حلب ، ورأوا في بلاطه مركزاً أدبياً مشرقاً وكان مزامنوه يسمون عصره بالعصر

---

(١) مع المتنبي ص (٢٣٨) .
(٢) فيض الخاطر ـ احمد امين (٤ / ٧٥) .
(٣) مع المتنبي ص (١٨٤) .

الذهبي [1] .

وكان سيف الدولة قبل انطلاقه إلى حلب الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة فأظهر قدرة وكفاءة وعبقرية وشجاعة في قيادة الجيوش عندما غزا الروم في سنة ٣٢٦ وأنزل بهم هزيمة كبيرة وأسر سبعين بطريقاً وأخذ سرير الدمستق وكرسيه [2] .

وفي سنة ٣٢٨ يقدم الأمير الشجاع على غزو الروم مرة ثانية ويصل إلى قاليقلا ويكتسح هَفْجيج وتطأ أقدامه مواطىء لم يصل إليها أحد من المسلمين من قبل ، ويمضي إلى قُلُونْيه [3] الحصينة المتأبية فتخضع له ويحرق رساتيقها [4] ويكتب إلى ملك الروم من هناك مستهزئاً به و بمنعه بلاده ثم يعود بجيشه ظافرا منتصراً بعد أن توغل في بلاد الروم مسافات لم يدخلها أحد من قبله وأسقط من مدنهم أكثرها حصانة وأشدها مناعة .

ويعرض الشاعر النامي لهذه الحادثة مخاطباً سيف الدولة فيقول [5] :

ونادى الهُدَى مستصرخاً فأجَبْتَهُ بقالِيقَلا إذْ كنت بالخيلِ مُسْهِما
ولم تَتَّئِدْ هَفْجِيجُ أيدي بُنَاتِها أبَدْتَهُمُ تحت السنابك رُغْما
لَئِنْ حَسِبت عذراءَ والبحرُ خِدرَها لقد وجدَتْ فيهِ ثُكولاً وأيِّما

وفي سنة ٣٣٠ يسير الأمير الحمداني للقاء البَريديِّ فيهزمه ويأسر جماعة من غلمانه ويكتب إليه الخليفة رسالة تمجيد وتعظيم لبطولته ويقول فيها :

---

(١) History of the Roman Empire (1 : 373)
(٢) نخبة تاريخية ــ كانار ــ ص (٧٣ ــ ٧٤) .
(٣) قلونيه ــ بلد بالروم بينه وبين قسطنطينيه ستون بريدا وصله سيف الدولة في غزواته ــ معجم البلدان (٤ / ١٦٨) .
(٤) الرستاق ــ فارسي معرب والجمع الرساتيق وهي السواد « اللسان مادة رستقه » (١١ / ٤٠٧) .
(٥) شعر النامي ص (٧٠) .

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . عرفتُ لا أخلاني الله منك ما تقرر عليه العزم في رواحك ، قرنه الله بالخيرة التامة والمعونة الشاملة والكفاية الجامعة ووصله بالنصر والفلح والظفر والفتح فتعجلت الاستيحاش لبعدك والتحسر لما يفوت من قربك — لا خلوت منك — وكنت أحب أن ألقاك وأسر برؤيتك قبل نفوذك « أي خروجك للقتال » ولما تعذر ذلك دعوت الله لك بجميل الصحابة ولي عليك بحسن الخلافة وأن يسعدنا بذلك سعادة محمودة البدء والعاقبة ، انه سميع الدعاء ، لطيف لما يشاء ، ولا يزال قلبي متطلعاً لمعرفة خبرك إلى أن يرد علي من مستقرك بما تريه وتمضيه وتدبره وتمشيه فتعمل — لا أخلاني الله منك — على ملاحظتي من ذلك في كل وقت وساعة بما تعلم حسن موقعه مني والسلام [1] .

ويتابع سيف الدولة انتصاراته على البريديين قرب المدائن وينزل بهم هزيمة نكراء ، ويأسر عدداً كبيراً من قوادهم وجنودهم ويرى بعض المؤرخين أن هذه المعركة وما وليها من نصر كانت السبب الرئيسي للإنعام عليه بلقب سيف الدولة [2] وإن كان كثير منهم يذهبون إلى أنه منح هذا اللقب قبل ذلك . . . أي . . . قبل دخوله بغداد وعلى أثر قتل ناصر الدولة لابن رائق بالموصل [3] .

وعلى أثر مغادرة الأميرين الحمدانيين لبغداد يعود سيف الدولة ليقيم في نصيبين حيث اختارها مقراً له قبل رحلته لبغداد وفي سنة ٣٣٢ يقلد ناصر الدولة الحسين بن سعيد أخا الأمير أبي فراس حلب وأعمالها وديار مضر والعواصم فيتألم سيف الدولة لذلك ويشعر أن ناصر الدولة يمتلىء قلبه حقداً

---

(١) نخبة تاريخية — كانار — ص (٤٩) .
(٢) تجارب الامم — مسكويه (٢ / ٢٩) .
(٣) انظر ابن الاثير (٨ / ١٤٩) والصولي ص (٢٢٨) .

عليه وفرقاً منه أن يطمع في ملكه ولكن الحسين ينصرف عن حلب لما دنا الإخشيد منها في ذي الحجة سنة ٣٣٢ [١] وولى الإخشيد حلب أبا الفتح عثمان ابن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي وولى أخاه أنطاكية فحسد أبا الفتح أخوته الكلابيون وبعثوا إلى سيف الدولة ليسلموا إليه حلب وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين فسار إلى حلب ودخلها في ربيع الأول ٣٣٣ هـ ، وكان سيف الدولة قد طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية فقال له ناصر الدولة « الشام أمامك ، وما فيه أحد يمنعك منه » [٢] .

وهناك رواية أخرى حول فتح سيف الدولة حلب ومفادها أن سيف الدولة طلب المعونة المادية والعسكرية من أخيه ناصر الدولة فرفض في بادىء الأمر فاستعان سيف الدولة بفاطمة الكردية زوج ناصر الدولة وأم أبي تغلب فوافق ناصر الدولة على إمداد أخيه بالمال والجند فسار سيف الدولة إلى حلب وملكها [٣] .

ويميل درويش الجندي إلى القول بأن سيف الدولة لم ينتزع حلب من يد عامل الإخشيد وإنما انتزعها من يد ابن عمه الحسين بن سعيد الذي كان والياً على حلب سنة ٣٣٢ وهو يرجح هذا الرأي بسبب التنافس الذي كان قائماً بين أفراد الأسرة الحمدانية . وان المتأمل في هذا الرأي يرى خطله وذلك لأن المؤرخين الثقات يكادون يجمعون على القول بأن الحسين بن سعيد قد ترك حلب بعد أن دنا منها الإخشيد في ذي الحجة من السنة المذكورة نفسها [٤] .

ويبدو لنا أن سيف الدولة كان منذ فترة طويلة يفكر في إقامة دولة في حلب فلقد ذكر مسكويه أن سيف الدولة أثناء وجوده في العراق وقتاله

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٠٥) .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١١٢) .
(٣) نشوار المحاضرة ص (٤٣٠) .
(٤) زبدة الحلب (١ / ١١) وابن خلكان (٢ / ٦٩) وابن الاثير (٣١٢/٦).

للبريديين كان يزهد الأتراك في العراق ويحملهم على قصد الشام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر [1] .

ولعل سيف الدولة اختار حلب لتكون عاصمة ملكه ليبتعد عن آتون المنازعات الداخلية التي كانت تعصف ريحها في بغداد ليزج نفسه في حرب تعلي من شأن الوطن ، لقد اختار حلب وهو يدرك أنه سيخوض في سبيلها عشرات المعارك الدامية مع الروم وهذا بحث طويل سنوفيه حقه حين نتكلم عن شعر الحرب في رحاب الأمير .

وبعد أن دخل سيف الدولة حلب مد سلطانه إلى شمالي سورية وأقام الدعوة فيها للمستكفي الخليفة العباسي ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه [2] .

سيف الدولة والاخشيديون

انطلق سيف الدولة الأمير الحمداني يوسع أراضي إمارته الفتية فحث الخطا إلى حمص حيث التقى بجيش كبير من الأخاشدة على رأسه خيرة قوادهم ومن بينهم كافور الإخشيدي وفاتك ، ودارت الدائرة على الإخشيديين وفروا إلى دمشق وهو في أعقابهم [3] .

ويعلم الإخشيد بهزيمة جيوشه أمام سيف الدولة فيخرج من مصر قاصداً الشام على رأس جيش كبير وعندما اقترب من دمشق تركها سيف الدولة متجهاً نحو الشمال إلى حمص ويسير الإخشيد في أعقابه ويلتقي الجيشان عند قِنَّسْرين وتجري بينهما معركة مريرة ينتصر فيها سيف الدولة على الإخشيد في البداية إلاّ أن الحسد يفتك بقلب ابن عمه الحسين بن سعيد الذي عجز عن هزيمة الإخشيديين في محاولته الأولى لغزو حلب فيأتي بعض التصرفات التي ينتج عنها انتصار الإخشيد . ولكن سيف الدولة لا ينصرف بل يعسكر مواجهاً

(١) تجارب الامم (٢ / ٤٠) .
(٢) مصر في عهد الاخشيديين ص (٣٩٣) .
(٣) الكامل (٨ / ٣٣٥) .

للإخشيد الذي يرهبه ويخشى بأسه ويرسل إليه طالباً الصلح والمسالمة [1] . وتنتهي المعركة بمصاهرة حمدانية إخشيدية ويتزوج فيها سيف الدولة من فاطمة ابنة أخي الإخشيد عبيد الله بن طغج وينتظم هذا الأمر على يد الحسن ابن طاهر العلوي [2] . ويقول أبو فراس في مِعْرَض الفخر بابن عمه سيف الدولة مشيراً إلى هذا النسب :

لمّا رأى الإخشيدُ ما قد أطالهُ تلافاه يثني غَرْبَـهُ ويكاثرُ
رأى الصهر والرسل الذي هو عاقد ينال به ما لا تنال العساكرُ [3]

وتم الصلح بينهم على أن يترك الإخشيد لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً وتعهد لهم بأن يدفع اتاوة سنوية في مقابل احتفـاظه بدمشق [4] . ويدل هذا الصلح على دهاء الإخشيد وسعة أفقه السياسي فقد رأى أن يكف من طموح سيف الدولة بهذا النوع الراقي من أسباب الود ، كما يبدو لنا أنه كان يعلم تمام العلم أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام كان لا بد أن ينتهي بانتصارهم عليه لبعد الشقة بين مصر وبين هذا الإقليم ولأنه كان المجال الحيوي لتوسع الحمدانيين ومن المحتمل أن الإخشيد كان لا يكره أن تظل دولة الحمدانيين دولة حاجزة بينه وبين البيزنطيين تكفيه مئونة التعرض لهجومهم من وقت إلى آخر [5] .

ولقد رأى الإخشيد إذن أن يلاين هذا الأمير الطموح والقائد الشجاع ليأمن جانبه من جهة وليجعل من إمارته الناشئة درعاً منيعة تقيه خطر الدولة

---

(١) نخب تاريخية ـ كانار ـ ص (٢٩) .
(٢) تجارب الامم (٢ / ٨٣) في زبدة الحلب (١ / ١١٥) .
(٣) نخبة تاريخية ـ كانار ـ ص (٣١) .
(٤) تاريخ الاسلام السياسي والثقافي (٣ / ٢١١) .
(٥) مصر في عهد الاخشيديين ـ د. سيده اسماعيل ص (٣٥٣) .

البيزنطية في عهد أقوى حكامها وأبرع قادتها ، ولا غرابة أن يلم الشاعر المتنبي بهذه الحقيقة حيث يقول :

ليس إلاّكَ يا عليُّ همامٌ ... سيفهُ دون عرضه مسلولُ
كيف لا تأمن العراقُ ومصرٌ ... وسراياكَ دونها والخيولُ
لو تحرفت عن طريق الأعادي ... ربط السِّدْرُ خيلَهُم والنخيلُ
ودرَى مَن أعزّهُ الدَّفعُ عنْهُ ... فيهما أنهُ الحقيرُ الذَّليلُ
أنت طولَ الحياةِ للروم غازٍ ... فمتى الوعْدُ أن يكونَ القُفُولُ
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ ... فعلى أيّ جانبيك تميلُ
قعد الناس كلهم عن مساعيـ ... ـكَ وقامت بها القَنا والنُّصُولُ
ما الذي عنده تُدارُ المَنايا ... كالذي عنده تُدار الشَّمولُ

ويحكي الإخشيد القصة بنفسه لمن لامه على ما تم بينه وبين سيف الدولة من الصلح والمصاهرة ويجيبه بقوله اعلم أن علي بن حمدان كاتبناه عن الرملة فبذلنا له فلم يفعل وكاتبناه عن طبرية فامتنع ، ثم سرنا إليه ورزقنا الله تعالى النصر عليه وعلى أصحابه ، فلم ينصرف وخيم حذاءنا بوجه صفيق وقلة حياء فتوقفت عنه . فقال لي الغلمان دعنا نمضِ تلقاءه ففكرت في قولهم ولم أخل من أحد وجهين ، إما أن يهزمنا ويرزق علينا النصر فتكون الفضيحة ، وإما أن نرزق عليه النصر فماذا أفعل به ، هل أكثر من أن أنزله في مضرب يشبهه وأنفق عليه ما يصلح له ، ثم أجهزه وأرده لأخيه وأهله لأنهم لا يتركونه ، وأقل ما كان يكفينا له مائتا ألف دينار ثم ألاّ أطيق غلماني من ادلال وامتنان علي بما عملوه ويطلبون مني الأعمال والولايات فرأيت أن مسالمته ومصالحته أفضل [1] .

---

(١) ابن سعيد ص (٤٣) .

وبعد أن تمّ الصلح بين الحمدانيين والإخشيديين استقر الإخشيد في دمشق وكأنه كان يخشى سيف الدولة ولا يأمن جانبه فأراد أن يكون على مقربة منه ولكن المنية عاجلته في نهاية سنة ٣٣٤ فخلفه ابنه أنوجور . ورجع كافور بالجيش إلى مصر فاغتنم سيف الدولة هـذه الفرصة واستولى عـلى دمشق مرة أخرى .

وأقام سيف الدولة في دمشق وجنى خراجها . . . وقيل أنه كان يسير بصحبة الشريف العقيقي في الغوطة بظاهر البلد فقال سيف الدولة للعقيقي : « ما تصلح هذه الغوطة تكون لرجل واحد » فقال له الشريف هي لأقوام كثر ، فقال سيف الدولة لئن أخذتها القوانين لتبرأ أهلها منها ، فأسرها الشريف في نفسه وأعلم أهل دمشق بذلك . وجعل سيف الدولة يطالب أهل دمشق بودائع الإخشيد فكاتبوا كافوراً فخرج في العساكر المصرية ومعه أنوجور ابن الإخشيد[١] وخرج سيف الدولة إلى اللّجون[٢] وأقام قريباً من عسكر الإخشيد ونشب القتال بين الفريقين وكتب النصر للإخشيديين وانهزم سيف الدولة إلى دمشق فأخذ والدته ومن كان بها من أهله وسار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة خمس وثلاثين وسار إلى حمص وجمع جمعاً كبيراً من بني عقيل وبني نمير وبني كلب وبني كلاب والتقى بالإخشيديين شمالي دمشق بمرج عذراء وكانت الوقعة أولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه وانهزم وتفرقت جيوشه وطارده الإخشيديون إلى حلب فهرب إلى الرقة ثم عقدت بينهما معاهدة بالشروط

---

(١) زبدة الحلب ــ ابن العديم (١ / ١٠١) .
(٢) في معجم البلدان لياقوت الحموي (٤ / ٣١٥) اللجون ــ بفتح اوله وضم ثانيه وتشديده وسكون الواو وآخره نون ــ هو بلـد بالاردن وبينه وبين طبرية عشرون ميلا والى الرملة مدينة في فلسطين اربعون ميلا وهي في الجنوب الشرقي من حيفا .

التي عقدت مع الإخشيد سابقاً إلاّ الجزية التي كان يدفعها الإخشيديون مقابل احتفاظهم بدمشق فانهم امتنعوا عن دفعها [1] .

وبعد ذلك بقي السلام قائماً بين سيف الدولة والإخشيديين ورسخ أسس إمارته الفتية التي كانت تشمل جند حمص وجند قنّسرين والثغور الشامية والجزرية وديار مصر وديار بكر واتخذ حلب عاصمة لملكه .

سيف الدولة والروم :

أخذ سيف الدولة بعد إتمام السلام مع الإخشيديين في توطيد أركان ملكه وتحويل دولته إلى سد منيع استطاع الوقوف أمام الخطر البيزنطي وقد وقف الفتى الحمداني عشرين عاماً شجى في حلق الدولة الرومانية ونار الحرب لا تخمد جذوتها ذياداً عن ديار الإسلام وقد روت كتب التاريخ أنه غزاها ما يزيد على أربعين غزوة كان النجاح حليفه في معظمها .

ولقد ذاع اسم الأمير الحمداني في العالم الإسلامي لا على أنه حاكم حلب فحسب بل على أنه البطل المجاهد ضد الروم . وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوى خصم وأعظم بطل وقف أمام الجيوش البيزنطية [2] .

كان لسيف الدولة وقائع مع الروم قبل أن يؤسس دولته في حلب وكانت أولى حروبه معهم سنة ٣٢٤ هـ . فلما استقر سيف الدولة بحلب وطن نفسه على حرب طويلة الأمد مع الروم ، وكانت أولى معاركه مع الدولة البيزنطية بعد تأسسيه دولته سنة ٣٣٧ ففتح حصن برزويه ووقع بينه وبين الروم وقعة

---

(١) زبدة الحلب (١ / ٣٧٣) .
(٢) الدولة البيزنطية ـ الباز العريني ص (٤٤) .

كانت الغلبة فيها للروم فملكوا مرعش ونهبوا طرطوس [1] .

وفي سنة ٣٣٩ غزا سيف الدولة الروم وأوغل في بلادهم حتى كان على بعد سبعة أيام من القسطنطينية فظفر فيها وغنم غنائم كبيرة ، ولكن الروم أخذوا عليه الدرب وكاد سيف الدولة يهلك نفسه فسميت تلك الغزوة غزوة المصيبة [2] .

وفي سنة ٣٤١ التقى سيف الدولة مع الروم عندما بنى مرعش وأتاه الدمستق [3] ليمنعه فألحق به سيف الدولة هزيمة منكرة ، وفي السنة التالية التقى سيف الدولة بالدمستق قرب مرعش . فأوقع به وهزم جيشه وكانت معركة رهيبة جرح فيها القائد البيزنطي برداس فوكاس وأسر ابنه قسطنطين الذي ظل في الأسر حتى مات من علة اعتلها . وكانت هذه المعركة من أكبر ما مر على البيزنطيين من نكبات فبعدها حزن برداس فوكاس حزناً شديداً على أمر ولده ودخل الدير مترهباً [4] .

وقال شعراء سيف الدولة شعراً كثيراً يصور ترهب القائد وأسر ابنه ، ففي ذلك يقول المتنبي [5] :

فلو كان يُنجي من عليٍّ ترهّبٌ ترهّبت الأملاكُ مثنىً وموْحَدا

---

(١) زبدة الحلب (١ / ٢٢٠) .
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والامم / أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٦ / ٣٦٧) .
(٣) الدمستق ـ معناها باللغة البيزنطية ـ ضابط البلاط وهي الصفة التي كان يحملها نقفور ـ أخبار الدول المنقطعة ـ خ ـ ٢ .
(٤) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) .
(٥) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) .

وقال النامي :

لكنه طلب الترهّب خيفــةً ممن لهُ تتقاصر الأعمــارُ
فمكان قائم سيفــه عكازه ومكان ما يتمنطق الزنّار

وفي سنة ٣٤٣ خرج سيف الدولة بجيشه لبناء الحدث وسارع الدمستق عندما علم بالخبر للقاء الأمير الحمداني بجيش لجب بلغ عدد جنوده خمسين ألفاً والتحم الجيشان في معركة هائلة كان النصر فيها حليف سيف الدولة وقتل في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف من جنود البيزنطيين ووقع عدد كبير في الأسر من بطارقتهم وجنودهم وكان من ضمن الأسرى صهر الدمستق وابن ابنته [١] وتغنى أكثر شعراء سيف الدولة بهذه الموقعة ، فقال أبو فراس [٢] :

وحسبي بها يوم الأحيدب وقعة على مثلها في العز تُثنى الخناصرُ [٣]
عدلنا بها في قسمة الموت بينهم وللسيف حكم في الكتيبة جائرُ
إذا الشيخ لا يلوي ونقفور مجْحِرٌ وفي القيد ألفٌ كالليوث قساورُ
لم يبقَ إلاّ صُهرُه وابن صهرِهِ وثوّر بالبــاقينَ من هو ثائرُ

ووصف المتنبي الموقعة بقصيدته الميمية الرائعة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ السّاقيــين الغمائمُ

وترتب على الهزيمة الساحقة التي حاقت بالبيزنطيين أن أرسل الأمبراطور

---

(١) نخب تاريخية وادبية ص (١٠٦) .
(٢) ديوان ابي فراس ــ شرح ابن خالويه (٢ / ١٤٥) .
(٣) الاحيدب ــ اسم جبل مشرف على الحدث ــ معجم البلدان (١/١٥٧).

قسطنطين سفارة إلى سيف الدولة يلتمس منه الصّلح غير أنه رفض أن يستجيب لطلبه [1] .

وفي سنة ٣٤٥ غزا سيف الدولة بلاد الروم ووطىء من أرضهم موطئاً لم يطأه المسلمون منذ ثلاثين سنة وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل وغنم ما يفوت الإحصاء من الدواب والديباج وعاد سالماً إلى آمد [2] وبقدر ما أحرز سيف الدولة من نصر في هذه الموقعة مني بخسارة كبيرة بأسر ابن عمه أبي العشائر القائد الحمداني الكبير الذي خلفه على حصن عرنداس فقصده ليون بن الدمستق وأسره وحماه إلى القسطنطينية فمات بها [3] .

وفي سنة ٣٤٦ لجأ الروم إلى الغدر والخيانة لإحراز النصر على سيف الدولة فتآمروا مع بعض غلمانه على أسره ولكن أحد القادة المعروف بابن كَيَغْلَغَ كشف أمر المتمردين وقضى الأمير على المحاولة الغادرة [4] .

وفي عام ٣٤٩ أوغل سيف الدولة في بلاد الروم فأحرز نصراً وعاد غانماً غنائم كثيرة إلاّ أن الروم أخذوا عليه الدرب المعروف بدرب « **مغارة الكحل** » فتحاربوا فغُلب سيف الدولة وحلت به الهزيمة وارتجع الروم ما كان سيف الدولة قد أخذه من سبي وأسرى وغنيمة وأُخذت جميع خزائنه وسلاحه وكان سبب هزيمته أنه لم يستمع لنصيحة أهل طرطوس الذين أشاروا عليه ألاّ يسلك ذلك الطريق وحذّروه فأبى أن يستمع إليهم وكان مُعجَباً برأيه يحبّ

---

(١) الدولة البيزنطية ـ السيد العريني ص (٤٢) .
(٢) أخبار الدول المنقطعة ـ خ ـ (١٥) .
(٣) زبدة الحلب (١ / ١٢٦) .
(٤) المرجع نفسه ص (١٢٧) .

أن يستبد به ولا يشاور أحداً لئلاّ يقال انه أصاب برأي عيره [1] .

وأُسر في هذه المعركة أبو فراس الحمداني كما قتل فيها أبو الحصين الرَّقّي قاضي حلب [2] .

هال الروم الهزائم المتلاحقة التي ألحقها بهم سيف الدولة فأخذوا يُعدّون العدة للانتقام واستدعوا أمهر قائد من قوادهم وهو نقفور فوكاس ونقل من الجبهةالغربية إلى الجبهة الشرقية وولي إمارة الجيوش في المشرق سنة ٣٥٠[3].

وفي سنة ٣٥١ هجم نقفور عيْن زَرْبَة [4] في مائة وستين ألف مقاتل وبهذا الجيش اللجب أحاط نِقْفُورُ بالمدينة فلما رأى أهل عين زَرْبَة أن الجبل قد ملك عليهم وأن جيشاً آخر ورد إلى باب المدينة وأن مع الدمستق دبابات كثيرة وأنه قد أخذ في نقب السور طلبوا منه الأمان فأمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها فوجد خيله الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إعطائهم الأمان فنادى في البلد من أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع وأن من تأخر في منزله قتل فخرج من أمكنـــه الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألف رجل وكل من وجدوه في منزله قتل فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فجمع منه أمر عظيم . . . وقطع ما في البلد من النخل فقطع نحو خمسين ألف نخلة ونادى فيمن حصل في المسجد الجامع من الناس

---

(١) الكامل ــ ابن الاثير (٦ / ٢٥٨) .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١٣١) .
(٣) الامبراطورية البيزنطية ــ نبيه عاقل ص (٢٠٤) .
(٤) في معجم البلدان لياقوت عين زربى ــ بفتح الزاي وسكون الراء وياء موحدة وألف مقصورة ــ يجوز أن يكون من زرب الغنم وهو ماواها وهو بلد بالثغر من نواحي المصيصة ٣ / ١٧٧ .

بأن يخرجوا من البلد إلى حيث شاءوا وأن من أمسى ولم يخرج قتل فخرج الناس مبادرين وتزاحموا في الأبواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ومرّوا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون إلى أين يتوجهون فماتوا في الطرقات ومن وجد في المدينة آخر النهار قتل وأخذ كل ما خلفه الناس من أمتعتهم وأموالهم وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل وبقي الدمستق مقيماً في بلدان الإسلام واحداً وعشرين يوماً فتح فيها حول عين زربة أربعةً وخمسين حصناً [1] .

لقد ظهرت وحشية البيزنطيين في هذه المعركة بصورة جلية واضحة فكانت النساء والأطفال وحتى أشجار النخيل طعمة لنيران حقدهم ولقد آلمت المأساة الدامية نفس الأمير الحمداني فسارع إلى عين زَرْبَة . وأعاد تشييد ما تخرب منها .

ثم إن نِقْفُورَ قصد حلب في هذه السنة بجيش يبلغ تعداده مائتا ألف جندي ولم يشعر سيف الدولة بخبرهم حتى قربوا منه فأنفذ غلامه نجا في جمهور عسكره ولكن جيش الروم خالفه في الطريق ولم يلتق به ، وأسرع الأمير الحمداني للقاء الروم خارج حلب في أربعة آلاف جندي ولكنه تيقن ألاّ طاقة له بمحاربة هذا العدد الضخم فعاد إلى عاصمته وبذل خزائن السلاح للرعية وفي الصباح شارف العدو على المدينة ونشبت معركة طاحنة غير متكافئة من ناحية العدد وقتل عدد من قادة الجيش الحمداني منهم أبو داود بن حمدان وبشرى الصغير غلام سيف الدولة وأبو محمد الفياض كاتبه واضطر سيف الدولة أن يتراجع نحو بالس لكي يعيد تنظيم جيشه ويطارده ابن الشَّمْشَقيق في عشرة آلاف من الفرسان . وأحاط الجيش الرومي بالمدينة وقاوم أهلها

---

(١) نخب تاريخية ــ كانار ــ ص (١٣٨) .

بكل شجاعة وبسالة إلاّ أن بعض اللصوص قاموا بالاعتداء على بيوت المدينة مما اضطر المدافعين أن ينصرفوا لحماية بيوتهم فانقض الروم على السور وتمكنوا من فتح ثغرة كبيرة فيه واقتحموا المدينة وأعملوا القتل والنهب وأحرقوا مسجد المدينة وخربوا قصر الحَلْبَة ونهبوا كل ما فيه من سلاح وعتاد وخيل وحرير وديباج وألوان وعلى الرغم من سقوط المدينة بيد البيزنطيين لم يستطيعوا احتلال قلعتها التي اعتصم بها عدد من أهالي المدينة وظلت منيعة تصد كل المحاولات لاقتحامها [1] . وقتل أمامها ابن أخت الدمستق فانتقم لمقتله بقتل من معه من الأسرى وكانوا ألفاً ومائتي رجل .

وأقام نقفور بالمدينة تسعة أيام ثم ارتد عن المدينة ولعل ذلك القرار راجع لخشيته من أن يقوم سيف الدولة بهجوم مفاجيء لا سيما بعد أن شاع انحياز نجا إليه في قنسرين . ويقول شلمبرجر المستشرق الفرنسي : « كان سيف الدولة عظيماً في انتصاره كما كان عظيماً في انكساره وكانت أمبراطورية البيزنطيين تخافه منتصراً وتجله منكسراً [2] ».

وما كادت الجيوش البيزنطية ترتد عن حلب حتى دخل سيف الدولة حلب وانصرف إلى إزالة ما تخرب ونقل إليها من استطاع جمعه من سكان مدينة قنسرين المجاورة وأعاد بناء أسوار حلب .

ورغم الهزيمة القاسية التي لحقت بالأمير الحمداني لم يفت ذلك في عضده ولم يذهب بثبات عزيمته فلقد أعاد تنظيم جنده ووجّه ثلاثة جيوش للهجوم على الروم وأوغلت جيوش المسلمين من طرسوس في بلاد الروم حتى وصلوا قونية فأوقعوا بالبيزنطيين وانتصروا عليهم وتوجه نجا غلام سيف الدولة من

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٣٣) .
(٢) سيف الدولة وعصر الحمدانيين ـ سامي الكيالي ص (١١٢) .

ناحية ملطية ، وعلى الرغم من المرض الذي ألمّ بسيف الدولة توغل بعسكره في الأراضي البيزنطية وحصل من السبي على أكثر من ألفين ومن المواشي على مائة ألف .

والجدير بالذكر هنا أن الحرب التي خاضها سيف الدولة ضد الدولة البيزنطية لمدة عشرين عاماً قد اتسمت بالصبغة الدينية ، ويمكن القول بأنها كانت حرباً صليبية قبل بدء الحروب الصليبية المعروفة وكانت هذه الحرب جهاداً قام به سيف الدولة على أحسن الوجوه فتصدى للخطر البيزنطي تصدياً شجاعاً .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا تزمكسيس هو أول من فكر في الشروع في الحروب الصليبية عندما فكر في استرجاع بيت المقدس من المسلمين في زحفه على بلاد الشام سنة ٣٦٤ وبذلك يكون قد سبق الحروب الصليبية بنحو مائة سنة تقريباً [١] ولكن الواقع أن نقفور فوكاس الذي سبق تزمكسيس ببضعة عشر عاماً يعد في رأينا أول من تبنى الحروب الصليبية ونفذها بحيث أنها كانت تسيطر على تفكيره في كل حملة قادها ضد سيف الدولة والحمدانيين .

والشواهد التي تدعم هذا الرأي كثيرة ، فنقفور عندما فتح طرسوس عام ٣٥٤ صعد منبرها وقال لمن حوله « أين أنا » فقالوا على منبر طرسوس فقال « لا » ولكني على منبر بيت المقدس وهذه كانت تمنعكم من ذلك [٢] .

ويبدو أن فكرة الاستيلاء على بيت المقدس كانت تراود نقفور كثيراً

---

(١) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ـ د. ابراهيم احمد العدوي ص (١٢٦) .
(٢) زبدة الحلب ص (١٤٢) .

وقد وضح ذلك من موقفه في طرسوس كما أنه يتضح من حملته سنة ٣٥٥ التي عاث خلالها في بلاد الشام وأقام بها نحو خمسين يوماً فبعث سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة قائلاً أن نقفور قد عسكر بالدرب ومنع رسولنا ابن المغربي أن يكتب بشيء ، فقال لا أجيب سيف الدولة إلاّ من انطاكيّة ليذهب عن الشام فانه لنا ويمض إلى بلده ويهادنْ عنه وأن أهل انطاكيّة راسلوا نقفور وبذلوا له الطاعة وأن يحملوا إليه مالاً وأنه التمس منهم يد يحيى ابن زكريا عليهما السلام وأن يدخل بيعة انطاكيّة ليصلي فيها ويسير إلى بيت المقدس [١] . وقد كشف هذا القائد عن نواياه حين خاطب أهل القرى العربية بعد عودته من الهجوم على حلب قائلاً اررعوا فهذا بلدنا وبعد قليل نعود إليكم [٢] . وقد كان نقفور يمهد لفكرته الصليبية في القسطنطينية حيث كان يظهر في أعياد الفصح مرتدياً ملابس غريبة مذهبة منتعلاً نعلاً مذهباً تشبهاً بالسيد المسيح [٣] .

وكان الجند البيزنطيون يحملون خلال المعارك راياتهم التي تزينها صور القديسين المقاتلين والصلبان الكبيرة حتى تعطي الحرب صبغة مقدسة[٤] .

وكان الروم في أناشيدهم يسمون سيف الدولة عدُوَّ المسيح فيقولون : « النصر لله الذي هدم البلاد العربية والنصر لله الذي شتت شمل من ينكر التثليث المقدس والنصر لله الذي جلل بالخيبة هذا الامير القاسي عدو المسيح »[٥].

ويرى الدكتور درويش الجندي أن طابع حرب الحمدانيين ضد الروم

---

(١) نخب تاريخية وادبية ـ كانار ـ ص (١٩٥) .
(٢) ابن الشحنة ص (٤٩) .
(٣) ابن سعيد الانطاكي ص (١٠٧) .
(٤) الدولة البيزنطية د. سيد عريني ص (٤٢٥) .
(٥) شعر الحرب ـ المحاسني ص (٢٥٦) .

لم يكن دينياً وأن الحمدانيين قاتلوا من أجل الملك حيث يقول : أكبر الظن أن النزعة الدينية عند بني حمدان وعند سائر حكام ذلك العصر جميعاً كانت في الدرجة الثانية بعد شهوة الملك ونزعة التغلب . وأن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم كان السبب الأول وأن الحرب لم تكن حرباً مذهبية . ويستطرد قائلاً : نعم لقد حمى سيف الدولة بحروبه مع الروم ذمار السلام ويحمد له الإسلام والمسلمون هذا الفضل ولكن غيرته على ملكه وحبه الاحتفاظ به وبسط رحابه كل ذلك كان الدافع الأول لما بذله من جهود في تلك الحروب الشعواء وإذا كان يحارب غير المسلمين من الروم فلماذا حارب الأخشيديين وقد كانوا مسلمين [1] .

وإني لا أوافق هذا الرأي وأرى أن الحرب كان دافعها الأول كما اتضح لنا دافعاً دينياً وخير دليل على ذلك أن جيوش سيف الدولة عندما كانت تنطلق لقتال الروم كانت تزود بخطب الجهاد التي تثير في نفوسهم الحمية الدينية وتدفعهم للاستماتة في القتال والاستشهاد في سبيل الله ، وكان ممن يقوم بهذه المهمة ابن نُباتة الفارقي خطيب سيف الدولة الحمداني الذي اشتهر بخطبه الحماسية في الجهاد التي كانت تهز قلوب المسلمين هزاً فلا يكاد ينزل عن المنبر حتى تنطلق جحافل المسلمين إلى قتال الروم وهي تبحث عن الشهادة في ساحات الوغى في سبيل الله .

أما بالنسبة لقول الجندي : إذا كان سيف الدولة يحارب غير المسلمين من الروم فلماذا حارب الإخشيديين وقد كانوا مسلمين . فان الأمير الحمداني لم يسع لقتال الإخشيديين وموقفه كان موقف الدفاع كما أنه كان متسامحاً كريماً معهم ففي موقعة الرستن التي خاضها ضد كافور انهزم الأخشيديون

---

(١) الشعر في ظل سيف الدولة ـ درويش الجندي ص (٨٣) .

وازدحم جماعة منهم في جسر الرستن ووقع جماعة منهم في النهر فرفع الأمير الحمداني السيف وأمر جنده ألاّ يقتلوا أحداً من الإخشيديين قائلاً « الدم لي والمال لكم » وأسر نحو أربعة آلاف من الأمراء وغيرهم . ثم بعد قليل أطلق سراحهم طائعاً مختاراً فمضوا وهم يشكرون صنعه .

ولقد جهد سيف الدولة لعقد صلات سلمية مع الإخشيديين وبعد عقد الصلح معهم انصرف بكل جهده لمقاومة البيزنطيين ولم يجر بينه وبينهم أي اصطدام طَوال مدة حكمه كما أنه كان يحرص على حسن العلاقة مع البويهيين والخليفة وحتى عندما تمكن معزُّ الدولة من طرد ناصر الدولة من الموصل وجاء الأخ الطريد إلى حلب واستقبله سيف الدولة استقبالاً حافلاً حاول بكل جهده ألاّ يصطدم بالبويهيين فعرض عليهم المفاوضة والصلح وعقد باسمه دون اسم أخيه الاتفاق وتعهد بدفع الجزية السنوية .

وخلاصة القول أن سيف الدولة كرس كل جهده لمقارعة الروم والدفاع عن ذمار المسلمين ودرء خطرهم ووقف زحفهم الصليبي . وأن حرب البيزنطيين ضده كانت حرباً صليبية صريحة وسابقة للحروب الصليبية المشهورة بفترة طويلة .

الأحداث الداخلية :

واجه سيف الدولة أخطاراً داخلية اضطر من أجل القضاء عليها إلى خوض المعارك وكان يخوضها مرغماً لأنه كان يحس بالخطر الكامن على حدود إمارته والمتمثل في البيزنطيين وأطماعهم ، وكان في إمكانه أن يحرز نصراً أعظم على الروم لولا أنه اضطر أحياناً لمقارعة الأخاشدة ومحاربة بعض القبائل العربية حيناً آخر وبعض القرامطة والعمال والقواد المتمردين .

كانت بعض القبائل العربية تزيد من هموم الأمير بين الحين والآخر

بثوراتها التي كانت تهدف للعبث والفساد والسلب والنهب ولكنه كان لها بالمرصاد ففي سنة ٣٤٣ أوقعت القبائل النزارية واليمانية بعامل سيف الدولة في قنسرين فأوقع بهم الأمير الحمداني وقتل وجوههم وسَراتهُمْ :

ويتغنى أبو فراس في تلك الموقعة فيقول مفتخراً[١] :

ألم ترنا أعزّ الناس جاراً وأمرعهم وأمنعهم جنابا
لنا الجبل المطلّ على نزار حللنا النجْدَ منه والهضابا
فلما أن طغت سفهاء كعب فتحنا بيننا للحرب بـــابا
منحناها الرغائبَ غير أنّا إذا شئنا منحناها الحِرابـــا

وعلى الرغم من عصيان هذه القبائل كان سيف الدولة رحيماً يصفح ويعفو بعد أن يقضي على محاولاتها . ولقد أحفظه بنو كلاب الذين أدناهم وقرّبهم فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حُرَمَهم وأموالهم ثم صفح عنهم وكرم وجمع الحرم ووكل بهن الخدم وأفضل عليهن وأحسن إليهن ليسل بكرمه أضغان هذه القبائل ويردها إلى حظيرة الطاعة . ولقد أحسن أبو فراس تصوير ذلك بقوله[٢] :

وما أنس لا أنس يومَ المغا رِ محجبةً لفظتهـــا الحجبْ
دعاك ذووها بسوء الفِعالِ لما لا تشاء وما لا تحبْ
فوافتْك تعثُرُ في مِرْطِهـــا وقد رأت الموت من عن كثبْ[٣]
وقد خلَطَ الخوفُ لمّا طَلَعْـ تَ دَلّ الجَمال بذُلّ الرعبْ

---

(١) ديوان ابي فراس (٢ / ١١) .
(٢) الديوان (٢ / ١٨) .
(٣) المرط : كساء من صوف ونحوه .

تُسارعُ في الخَطْوِ لا خِفّةً وتهتَزُّ في المَشْيِ لا من طرَبْ
فلما بدتْ لك دون البيوت بدَا لك منهنّ جيشٌ لجِبْ
فكنت أخاهُنَّ إذْ لا أخٌ وكنتَ أباهُنَّ إذْ ليس أبْ
وما زلتَ مذ كنتَ تأتي الجميلَ وتحمي الحريمَ وترعى النَّسَبْ
وتغضَبُ حتى إذا ما ملكتَ أطعتَ الرّضا وعصيْتَ الغضَبْ
فولَّيْنَ عنْكَ يفدّينَها ويرفَعْنَ من ذيلِها ما انسحَبْ
ينادينَ بين خلال البيو ت لا يقطعُ اللهُ نسْلَ العرَبْ
أمرتَ وأنتَ المُطاعُ الكريمُ ببَذْل الأمانِ ورَدّ السّلَبْ

ويقول المتنبي واصفاً رفق الأمير بقومه من العرب :

وكيف يتمّ بأسك في أناس تصيبهم فيؤلمكَ المصاب

ويذكر الببغاء حلم الأمير وعفوه عن بني كلاب (١) :

إذا استلكَّ الجانونَ أغمدك الحلم وإن كفّك الإبقاء أنهضك العزم
إذا العُرْبُ لم تجْز اصطناع ملوكها بشكر تمادت في سياستها العجم
أعدها إلى عادات عفوك محسناً كما عودتها قبل آباوك الشمُّ
فان ضاقَ عنها العذرُ عندك في الذي جنته فما ضاق التفضل والحلم

وبقدر ما كان سيف الدولة رحيماً بالقبائل العربية كان شديداً على الروم شديداً على القرامطة وذوي الدعوات الهدامة يضربهم في عنف وقسوة كما فعل بالمبرقع ٣٣٦ هـ الذي أخذ يدعو الناس إلى نفسه في بادية السماوة وافتتح

(١) نشوار المحاضرة ـ ابو المحسن التنوخي (١ / ١٠٣) .

مدائن أطراف الشام وأسرَ أبا تغلب بن داود بن حمدان وهو نائب سيف الدولة على حمص وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال فأسرع إليه سيف الدولة من حلب يغذ السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به وقتله ووضع السيف في أصحابه فلم ينْجُ إلاّ من سبق فرسه وعاد سيف الدولة إلى حلب ومعه أبو وائل وبين يديه رأس الخارجي على رمح [1] .

وقد صوَّر أبو فراس هذا الحدث بقوله [2] :

وأنقذ من مسّ الحديد وثقله أبا وائل والدهر أجدع صاغر
وآب ورأس القرمطي أمامه له جسد من أكعب الرمح ظاهر

وذهب بعض الباحثين إلى أن سيف الدولة قد صانع القرامطة رتفادى الاصطدام بهم وذكروا مثالاً على ذلك أنه في سنة ٣٥٣ استهدى الهَجَريّون من سيف الدولة حديداً فقلع سيف الدولة أبواب الرَّقّة وهي من حديد وسد مكانها وأخذ حديداً بديار مضر حتى أخذ سنجات الباعة والبقالين ثم كتبوا إليه أنّا قد استغنينا عن الحديد فأخذ القاضي أبو حصين الأبواب فكسرها وعمل منها أبواباً لداره . ثم كتب الهجريون يلتمسون الحديد فأخذ الأبواب التي عملها أبو حصين وسائر ما قدر عليه من الحديد وحمله في الفرات إلى هيت ثم منها إليهم في البرية [3] .

ولا نستطيع أن نطمئن إلى صحة هذا القول ونسلم به وإليك الدليل الذي يدفعنا إلى الشك ويقوي في النفس رفض هذه الرواية ودحضها ، تزعم الرواية أن القاضي أبا حصين أخذ سنة ٣٥٣ الأبواب فكسرها وعمل منها أبواباً

---

(١) يتيمة الدهر الطبعة الثانية (١ / ٣٦ ــ ٣٧) .
(٢) ديوان أبي فراس ــ شرح ابن خالويه (٢ / ١٤٧) .
(٣) تجارب الامم ــ مسكويه (٢ / ٢٠٣) .

لداره وذلك عندما كتب القرامطة إلى سيف الدولة أنهم استغنوا عن الحديد . بينما من الثابت المؤكد أن القاضي أبا حصين لم يكن على قيد الحياة آنذاك إذ كان قد قتل سنة تسع وأربعين وثلثماية في غزوة مغارة الكحل .

وفي سنة ٣٥٤ هـ خرج مروان العقيلي وكان من مستأمنة القرامطة واستطاع أن يدخل حلب أثناء غياب سيف الدولة عنها من أجل الفداء ولكن مدته لم تطل فيها حيث مات من ضربة ضربه بها أحد غلمان سيف الدولة [١] .

وقد خرج كذلك بعض عمال وقواد سيف الدولة رأعلنوا التمرد والعصيان وذلك لِما شعَروا به من قوة ومنعة خاصة في الفترة الأخيرة من حكم سيف الدولة .

ففي سنة ٣٥٢ هـ حاول هبة الله بن أخيه ناصر الدولة التمرد في حرّان [٢] وأرسل سيف الدولة غلامه نَجا إلى حرّان ليعيدها إلى حظيرة الأمير فما أن علم هبة الله بذلك حتى هرب إلى أبيه بالموصل [٣] ولكنّ نجا نفسَه خرج من حرّان إلى ميافارقين ، وهناك أظهر العصيان ولم يكتف بذلك بل كاتب معز الدولة البويهي يعِدُه المعاضدة والمساعدة على بني حمدان وسار إليه سيف الدولة يريد تأديبه وقتاله فهرب نَجا ثم أرسل إليه الأمير يرَغّبه ويرهّبه فرجع إلى سيده الذي أحسن إليه وأعاده إلى سابق رتبته إلاّ أن غلمان سيف الدولة وثبوا عليه فقتلوه فحزن الأمير حزناً شديداً [٤] .

وفي سنة ٣٥٤ خرج أهل إنطاكيّة عن طاعة الأمير وحدثت الفتنة التي

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٤٧ ـ ١٤٨) .
(٢) من الاماكن المشهورة في لواء الرها وكانت قصدة ديار مضر ، صورة الارض ابن حوقل ص (٢٢٦) .
(٣) الكامل ـ ابن الاثير (٧ / ٧) .
(٤) الكامل ـ ابن الاثير (٧ / ٩) .

قام بها الحسن الأهوازي في انطاكيّة وكان عاملاً عليها من قبل سيف الدولة فثار بمصاحبة رشيق النسيمي أحد قواد سيف الدولة الحمداني في الثغور إلاّ أن الأمير الحمداني استطاع أن يخضع الثائرين ويقتل القائمين بالفتنة وأعاد انطاكيّة إلى طاعته [1] .

ويظهر مما تقدم أن سيف الدولة قد ضعف في آخر عمره لمرض لحقه إذ أنه أصيب بالفالج وقد أدى ضعف الأمير إلى انهيار تلك الوحدة التي حققها بين أطراف دولته وانعدام الاستقرار الذي أوجده وبذل من أجله الكثير .

وفاة سيف الدولة

حياة سيف الدولة كان معظمها جهاداً وجلاداً وكفاحاً ونفاحاً ، إما مع الروم وإما مع المنقضين عليه من القبائل النازلة في ملكه أو القرامطة أو بعض العمال والقادة المتمردين الخارجين .

وحسبك أن سيف الدولة كان قد جمع من نفض الغبار الذي أصابه في الغزوات ما تكوّن منه لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده فنفذت وصيته [2] .

ولقد قضى الأمير المجاهد نحبه سنة ٣٥٦ فاشتد بكاء الناس عليه ومنه كما يقول الأزدي [3] فتذرف الناس الدمع عليه لأنه كان فارساً مجاهداً وأديباً حانياً على كثير من الأدباء والشعراء والعلماء وبكوا منه لأنه كان يجور على رعيته في بعض الأحيان .

---

(١) زبدة الحلب (١ / ١٤٨) .
(٢) العبر في خبر من غبر ــ الحافظ الذهبي (٢ / ٣٠٦) .
(٣) اخبار الدول المنقطعة ــ خ ــ (٢١) .

ولقد أُثِرَ عن أبي الحصين الرّقّي قاضي سيف الدولة قولُه « كُلُّ مَنْ هَلَكَ فَلِسَيْفِ الدّولَةِ ما مَلَكَ »[1] .

وقد نقل إلى ميافارقين ودفن في مقبرة أمّه داخل المدينة[2] .

وبوفاة الأمير الحمداني ضعف شأن الحمدانيين وتزعزعت دولتهم في حلب وخلفه ابنه سعد الدولة وبقي حاكماً إلى أن توفي سنة ٣٨١ هـ فملك بعده ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة وبقي في الحكم إلى أن توفي سنة ٣٩٢ هـ وبموته انقرض حكم الحمدانيين في حلب .

---

(١) زبدة الحلب (١/١١٢) .
(٢) ابن خلكان (٢ / ٩٩) .

obeikandl.com